الرسالة القشيرية

و.. أسطورة التصوف المعتدل..



بقلم د. أحمد صبحي منصور
قسم التاريخ الاسلامي - جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية - القاهرة

○ إذا ذكرنا التصوف المعتدل قفز إلى أذهان الباحثين في التصوف اسم الرسالة القشيرية باعتبارها أهم مصادر االتصوف المعتدل لديهم ، إذ أن القشيري كتب رسالته (الرسالة القشيرية) خصيصا للإنكار على المتطرفين من صوفية عصره وقد وصفهم بالكفر والفسوق والعصيان ،وأن التصوف الحقيقي في نظره برىء منهم ولهذا ألف رسالته ليبرهن على تمسك الأسلاف الصوفية بالإسلام .

○ وقد يكون من الأوقع أن نستشهد بكلام القشيري نفسه في مقدمة رسالته يقول « اعلموا رحمكم الله أن المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم ولم يبق في زماننا إلا أثرهم ، مضى الشيوخ الذين كان بهم اهتداء ، وقل الشباب الذين كان لهم بسيرتهم اقتداء ، وزال الورع واشتد الطمع ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة ، فعدوا قلة المبالاة بالدين أوثق ذريعة ، ورفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادات واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميدان الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات وقلة المبالاة بتعاطي المحظورات ، والارتفاق بما يأخذونه من السوقة والنسوان وأصحاب

السلطان ، ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال ، حتى أشاروا إلى أعلى الحقائق والأحوال ، وادعوا أنهم تحرروا عن رق الأغلال ، وتحققوا بحقائق الوصال ، وأنهم قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وليس لله عليهم فيما يؤثرونه أو يذرونه عتب ولا لوم ، وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية ، واختطفوا عنهم بالكلية ، وزالت عنهم أحكام البشرية ، وبقوا بعد فنائهم عنهم بأنوار الصمدية ، والقائل عنهم غيرهم إذا نطقوا ، والنائب عنهم سواهم فيما تصرفوا ، ولما طال الابتلاء فيما نحن فيه من الزمان بما لوحت ببعضه من هذه القصة ، وما كنت لأبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار غيره على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء ، أو يجد مخالف لثلبهم مساغا ، إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة ، ولما كنت أؤمل من مادة هذه الفترة أن تنحسم ولعل الله سبحانه يجود بلطفه في التنبيه لمن حاد عن السنة المثلى في تضييع آداب الطريقة ولما أبى الوقت الا استصعابا ، وأكثر أهل العصر بهذه الديار إلا تماديا فيما اعتادوه واغترارا بما ارتادوه ، أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه فعلقت هذه الرسالة إليكم أكرمكم الله »[1] .

فالقشيري اضطر للإنكار على معاصريه اضطرارا بسبب تطرفهم الزائد في إعلان عقائد التصوف مع وجود كثرة من أعداء التصوف يجدون في المتطرفين فرصة للهجوم على مبدأ التصوف . يقول القشيري « وما كنت لأبسط إلى هذه الغاية لسان الإنكار على هذه الطريقة أن يذكر أهلها بسوء أو يجد مخالف لثلبهم مساغا إذ البلوى في هذه الديار بالمخالفين لهذه الطريقة والمنكرين عليها شديدة » . وكتب القشيري رسالته ليثبت أن التصوف لا يعترف بما وقع فيه صوفية عصره من إلحاد وفسوق يقول: « أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر على هذه الجملة بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه فعلقت هذه الرسالة إليكم » .

○ والواقع أن الصوفية في عصر القشيري لا يختلفون في شيء عن الصوفية السابقين من الرواد الذين ترجم لهم القشيري في رسالته طالبا الاقتداء بهم . وبمعنى آخر فصوفية عصر القشيري يقتدون برواد التصوف في القرنين الثالث والرابع من الهجرة في العقائد والسلوك ، وإن كانوا أكثر صراحة في التعبير عن عقائدهم تبعا للتطور الزمني وانتشار التصوف وكثرة رجاله وتمتعهم بنوع من الحرية حرم منه الرواد

---

(١) الرسالة القشيرية ص ٤ ، ٥ ط صبيح .

السابقون فاضطروا للرمز والتستر والتقية . بينما أفاض الصوفية المعاصرون للقشيري في التعبير عن عقائدهم المخالفة للإسلام وتجسيدها سلوكا حيا فأثار هذا حنق المسلمين وزعمائهم من الفقهاء فاضطر القشيري للهجوم على رفاقه الصوفية مطالبا إياهم بالرجوع إلى سيرة الصوفية « المعتدلين » أصحاب التستر والتقية والنفاق وإبطان التصوف وإظهار الإسلام .

○ ويقول القشيري « ولما أبى الوقت إلا استصعابا وأكثر أهل العصر بهذه الديار ــ يقصد الصوفية ــ إلا تماديا فيما اعتادوه واغترارا بما ارتادوه أشفقت على القلوب أن تحسب أن هذا الأمر ــ أي التصوف ــ على هذه الجملة بنى قواعده وعلى هذا النحو سار سلفه فعلقت هذه الرسالة إليكم » ..

فالقشيرى يتهم معاصريه الصوفية بالخروج عن طريق التصوف الأصلي الذي صاغه الرواد الذين ترجم لهم في رسالته مع أنه لا فارق ــ كما قلنا ــ بين عقائد الرواد وعقائد الخلف إلا في درجة التعبير فالمضمون واحد والطريق واحد .. وطبيعي أن تختلف درجة التعبير في العقائد الواحدة تبعا لاختلاف الظروف التاريخية والبيئية والثقافية لكل صوفي ، وسنأتي باتهامات القشيري لمعاصريه من الإلحاد والفسوق ، ثم نأتي بما يؤكدها من تاريخ الرواد الصوفية الأوائل ممن ذكرهم القشيري في رسالته طالبا الاقتداء بهم أو مما يقوله القشيرى نفسه معبرا عن رأيه وعقيدته لنثبت أن العقيدة الصوفية والسلوك الصوفي واحد في النوع وإن اختلف التعبير حسب الظروف .

فالقشيري يتهم معاصريه الصوفيه بادعاء الألوهية طبقا لعقيدة الاتحاد الصوفية وهي أن الصوفي بالمجاهدة يمكنه أن يتحد بالله ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ــ ويتحقق بالحق ويصبح العبد فانياً في الله وحينئذ تنمحى الفروق بين الله والصوفي ولا يكون هناك عبد أو رب وإنما وجود واحد ، وتلك الدرجة عند الصوفية « أعلى الحقائق » ، وقد ذكر القشيري المساوىء الخُلقية لمعاصريه الصوفية ثم أتبعها بقوله عنهم ــ كأنه يستكثر عليهم ادعاء الألوهية ــ « ثم لم يرضوا بما تعاطوه من سوء هذه الأفعال حتى أشاروا إلى أعلا الحقائق والأحوال ــ أي عقيدة الاتحاد ــ وتحققوا بحقائق الوصال ــ أي تحققوا بالحق تعالى عن ذلك علوا كبيرا ــ وأنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم محو ــ أي حل الله فيهم ، وتصرف في أجسامهم بعد أن محوا وفنوا فيه . وأنهم كوشفوا بأسرار الأحدية واختطفوا عنهم بالكلية وزالت عنهم أحكام البشرية ــ أي أصبحوا آلهة بعد اتحادهم بالله ــ وبقو بعد فنائهم عنهم

بأنوار الصمدية ــ أي بقوا آلهة بعد أن فنى الوجود البشري فيهم ولم يبق فيهم إلا النور الإلهي » .

ب) وما يتهم به القشيري معاصريه هو نفسه ما ذكره منسوبا للرواد فادعاء زوال البشرية والبقاء بعدها بالحق أو متحدا بالحق فانياً فيه هو ما عبر عنه الجنيد حين سئل عن التصوف فقال « أن يميتك الحق عنك ويحييك به »(٢) . ومعناها أن يميت الحق بشريتك فتبقى حيا بألوهيته فانيا فيها .. وادعاؤهم بأنهم « قائمون بالحق تجرى عليهم أحكامه وهم محو » أي فانون في الحق بعد الاتحاد به، هو نفسه ما قاله الجنيد زعيم المعتدلين في تعريف آخر للتصوف (أو التوحيد الخاص) فيما يرويه القشيري (سئل الجنيد عن توحيد الخاصة ــ أي الصوفية ــ فقال أن يكون العبد شبحا بين يدي الله تعالى تجرى عليه تصاريف تدبيره في مجارى أحكام قدرته بالفناء عن نفسه)(٣) . فصوفية عصر القشيري حين ادعوا أنهم قائمون بالحق تجري عليهم أحكامه وهم محو وفناء إنما يترجمون رأي الجنيد في التوحيد الصوفي في كون الصوفى شبحا فانيا بين يدي الله تعالى تجرى عليه أحكام قدرته بعد فنائه عن نفسه .

○ وقد أورد القشيري أقوالا كثيرة للرواد الصوفية في عقائد الاتحاد بالله وفناء الصوفي في الذات الإلهية وهو نفس النمط الذي ينكره على معاصريه . ونكتفي بهذه الأقوال عن الفناء . « يقول الجوزجاني : الولى هو الفاني في حاله -أي الفاني عن بشريته ــ الباقي في مشاهدة الحق ــ أي الذي يبقى متحداً بالحق تعالى عن ذلك علوا كبيرا ــ تولى الله سياسته فتوالت عليه أنوار التولي ــ أي حلول الأنوار الإلهية ــ ليس له عن نفسه إخبار ــ أي فنى عن نفسه ــ ولا مع غير الله قرار(٤) ــ أي استقر في الذات الالهية » . ويقول أبو العباس الدينورى « أدنى الذكر أن تنسى ما دونه ونهاية الذكر أن يغيب الذاكر في الذكر عن الذكر »(٥) . أي يتحقق باسم المذكور وينسى ما عداه حتى ما يفعله من الذكر .

وأورد القشيري تعبيرات أخرى عن الفناء والاتحاد تدعو الصوفي للخروج عن النفس باعتبارها مظهر البشرية ومتى تخلى الصوفي عنها صار إلها يستحق الاتحاد بالله من ذلك ما يرويه عن أبي يزيد البسطامي « قال رأيت ربي في المنام فقلت كيف أجدك قال : فارق نفسك وتعال »(٦) . وقال الطمستاني « النعمة العظمى في الخروج

(٢) الرسالة ص ٢١٧ ــ (٣) ــ الرسالة ٢٣٢ ــ (٤) ــ الرسالة ص ٢٠٣ ــ (٥) الرسالة ص ٨٥
(٦) الرسالة ص ٨٥

عن النفس والنفس أعظم حجاب بينك وبين الله »[٧] . ومنذ بداية التصوف كان السرى السقطى يدعو فيقول « اللهم مهما عذبتني بشيء فلا تعذبني بذل الحجاب »[٨] . والحجاب في العرف الصوفي هو ما يمنع من الاتحاد بالحق والفناء فيه .

بل إن القشيري بنفسه أطل علينا برأيه الصوفي في عقيدة الاتحاد والفناء يقول عن الفناء : « فإذا فنى العبد عن صفته بما جرى ذكره يرتقى عن ذلك بفنائه عن رؤية فنائه .. فالأول فناؤه عن نفسه وصفاته ببقائه بصفات الحق ثم فناؤه عن صفات الحق لشهوده الحق ثم فناؤه عن شهود فنائه باستهلاكه في وجود الحق »[٩] .

فالقشيري يقرر بنفسه مراحل الاتحاد بالله والفناء فيه ليصل في النهاية إلى تمام الاتحاد والتمازج بين الصوفي والله أو بتعبيره يفنى عن نفسه وصفاته ويبقى بصفات الحق ثم يفنى عن صفات الحق ليشهد الحق تعالى نفسه ثم يفنى عن مجرد الشهود حين يستهلك أي ينمحى في وجود الله ــ تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

○ وهكذا فالقشيري يقرر القاعدة الصوفية وإن كان يستكثر على المعاصرين له ادعاء الألوهية تشبها بالرواد الأسلاف . فالقشيري لا يرى بأسا في الشطحات الصوفية إذا صدرت عن الأسلاف السابقين فمهما قالوا فهم « عارفون » يدلنا على ذلك قوله في ترجمة الصوفي ابن يزدانار « كان ينكر على بعض العارفين في اطلاقات وألفاظ لهم »[١٠] أى فمهما قالوا فهم أيضا (عارفون) أما معاصروه فلايستحقون إلا التوبيخ والانتقاص ، وهذا شان الاشياخ الصوفية في كل عصر يشيد بالسابقين وينتحل لهم الأعذار والمبررات والتأويلات ويهاجم معاصريه ويستكثر عليهم أن يقولوا الشطحات أو بجسدوا بسلوكهم وأقوالهم العقائد الصوفية التي قررها الرواد الأوائل للتصوف .

○ بيد أن هناك ناحية أخرى جعلت القشيري يتعالى على معاصريه ويتأفف أن يكونوا مستحقين للادعاء بالألوهية أو الإشارة إلى أعلى الحقائق والأحوال » ذلك أن معاصريه الصوفية انهمكوا في الشهوات وأظهروا الاستهانة بالفرائض وتسولوا مع النساء في الأسواق وأصبحوا في نظره عاراً على التصوف ، وزاد الأمر أنهم مع هذا يدعون الاتحاد بالله كما كان الرواد يفعلون ــ وهناك فارق شاسع لدى القشيرى بين أشياخه ومعاصريه . ... كأنَّ جوهر الاعتدال الصوفي عنده ألا يكون الصوفي ظاهر الفسق ليكون مستحقا لادعاء الألوهية .

---

(٧) الرسالة ص ٤٩ ، (٨) الرسالة ص ١٨ ــ (٩) الرسالة ص ٦٢ ، ٦٤
(١٠) الرسالة ص ٤٧